

الحق والعدل والسلام

د . محمد سامح سعيد

أستاذ بكلية الهندسة - جامعة القاهرة

=====

لقد كان حلم الرئيس السادات تحقيق السلام القائم على العدل وبذل الرئيس مبارك جهودا جبارة لتحقيق ذلك ومازال ولكن هل يريد الإسرائيليون حقيقة السلام ؟ وهل يقبلون من أجله حكم الحق والعدل والمنطق ؟ ما الذى يراد حقيقة من الفلسطينيين الذى يراد لهم هو الركوع . كل ما تفعله إسرائيل من إذلال ومهانة وقهر وبطش يراد منه فى النهاية أن ينطق الشعب الفلسطينى وتحديدا حماس وتحديدا هنية ليقولوا لمن اغتصب الأرض والدار نعم نحن معترفون بأحقيتكم فى هذا الاغتصاب وهذا الإحتلال . فقط ارفعوا عنا الحصار لأننا جوعى نريد أن نعيش أى حياة بأى شكل . دعونا نعيش لأننا تعبنا ولا قبل لنا بكم . الأرض أرضكم والدار داركم والوطن وطنكم وليس لنا أى مطالبة بأى من هذا ونحن متنازلون عن حقوقنا بل ليس لنا حقوق أصلا وكنا مخطئين أن نقف أمام أسيادنا منذ البداية وكان أسلافنا مخطئين إذ لم يقفوا بالورود يستقبلون أسلافكم الذين جاءوا إلى هذه الأرض مهاجرين . كان المفروض أن يفسحوا لهم الأرض والدار ليؤووهم إذ جاءوا مضطهدين من أوروبا . ولكن أسلافنا سامحهم الله تظاهروا ضدكم واعترضوا على هجرتكم الجماعية بينما أسلافنا اغتصبوا هذه الأرض منذ أيام عمر بن الخطاب ولم يكن لهم حق فيها وما كان لهم أن ينشروا الإسلام فى الشرق الأوسط وما كان لهم أن يهزموا الإمبراطورية البيزنطية وحتى إذا ما حدث ذلك فكان من واجبهم أن يستدعوا وبسرعة اليهود المظلومين ويجمعوهم من الشتات ويقولوا لهم ها نحن قد حررنا أرضكم الموعودة التناطكم إياها ربنا وربكم وها نحن قد حررناكم لكم ففضلوا إلى وطنكم فلسطين . ولكن لأن أسلافنا لم يفعلوا ذلك كله فقد حلت بنا لعنة إله إسرائيل ولذلك فالجوع والعذاب الذى نحن فيه الآن بسبب أخطائنا وأخطاء آبائنا ولذلك فنطلب منكم الآن الصفح على ذنوبنا وها هو وطنكم وأرضكم بالكامل ردت إليكم فافعلوا بنا ما تشاءون فنحن عبيد إحسانكم ورهن رحمتكم ولكن دعونا نعيش . نريد طعاما لنا ولأولادنا ودعونا فقط نعيش خدما لكم أسرى إحسانكم ورهن عطفكم . هذا هو الكلام الذى يريد الإسرائيليون سماعه من هنية من حماس من الشعب الفلسطينى كله . تنازل مطلق عن الوطن والأرض والعرض والكرامة . تنازل عن الحقوق والاستحقاقات . تنازل عن حق العودة أو التعويض أو الاعتذار . لم يتعرض شعب من شعوب الدنيا كلها لهذا القدر من المهانة والإذلال كما يتعرض له الشعب الفلسطينى . بل ويتم ذلك بمباركة من الرجل الطيب مبعوث العناية الإلهية القابع فى البيت الأسود أى الأبيض رمز الخير والقداسة الذى يحمل راية الحرب المقدسة ضد المسلمين الأشرار فى كل مكان فى العالم . كثيرون يقولون لا بد من الاعتراف بالأمر الواقع نحن ضعاف ولا قبل لنا بهم و إسرائيل قامت ولا مجال الآن لإنكارها ناهيك عن إزالتها . من يتكلم عن إزالتها ؟ إن المنطق الفلسطينى يقول نحن سكننا فى هذه الأرض حتى قبل أن توجد إسرائيل الأولى بألاف السنين . فالساكنون الآن هم نسل من سكنوها من قبل النبى إبراهيم عليه السلام . وإن كانت دارت حروب وقتها بين الإسرائيليين والفلسطينيين من عبدة الأوثان فذاك زمن راح وانتهى لأن الفلسطينيين الآن هم مسلمون ومسيحيون وليسوا عبدة أوثان . ثم كيف يأتى قوم إلى أرض بها بشر ليقولوا لهم إننا سكننا هذه

الأرض قبلكم أو حتى معكم منذ ألفى عام فافسحوا لنا وأعطونا الأرض . أضعف الإيمان أن نتشارك فيها لا أن يتسلط طرف على طرف فيكون هو السيد والآخر العبد الذليل . نعم إسرائيل أمر واقع ولا مجال للتغايى أو الإنكار ولكنه أمر واقع بالقهر بالقوة بالتأمر العالمى . واقع كحقيقة مادية بسبب ضعف أهل هذه البقعة من مسلمين ومسيحيين . أمر واقع بسبب خلل حدث فى فترة من تاريخ أمة عريقة ارتضت لنفسها التخلف والإنحطاط وتقاعت عن واجبها فى الدفاع عن نفسها بالأخذ بالأسباب وملاحقة التقدم . نعم أمر واقع لأن هذه الأمة وضعت ثقنها فى أعدائها وصدقت وعودهم الكاذبة . ولكن الأمر الواقع لا يعطى الحق . نعم الفلسطينيون أضعف شأنًا من أن يتحدوا إسرائيل لإزالتها فليس فيهم سلاح ماض ولا قوة محلية ولا إقليمية ولا دولية تساندهم . ليس معهم إلا كلمة واحدة إذا نطقوها ضاعوا وضاعت قضيتهم . الغاصب يريد أن ينطقوا بها وهى : لم يعد لنا حقوق وهو الاعتراف بشرعية المحتل وأحقية الغاصب . ليس لهم إلا هذه الكلمة والغاصب لا يريد شيئًا إلا هذه الكلمة . لقد رفعت مصر شعار السلام القائم على العدل ولكن كما قال لى أحد الأمريكيين يوما أن هاتين الكلمتين متناقضتين فلا يمكن أن يسود السلام على أساس العدل لأن تحقيق العدل سينسف السلام الحالى . إذا السلام الحالى هو سلام مفروض بالقوة وبسبب اختلال موازينها فليس هذا سلاما وإنما هو حالة من حالات التسكين لمشكلة تبدو مستعصية . بينما حلها سهل وبسيط هو أن تتواضع إسرائيل قليلا وأن تعترف أولا أن الفلسطينيين بشر وأن للبشر كرامة وأن لهم حقوق وأنها ارتكبت خطأ تاريخيا فى حقهم يستاهل الاعتذار وأن تتحمل مقابل ذلك التزاما أخلاقيا Moral Obligation تسترضى به خواطر هؤلاء الذين ظلّموا بدون وجه حق . دون ذنب جنوه فلا هم الذين حرقوا اليهود فى الأفران ولا هم الذين وضعوهم فى معسكرات أوشفيتز . الحل ممكن إذا نسى الإسرائيليون ولو لحظة عداءهم القديم للعرب واحتقارهم لبنى إسماعيل . هناك آفاق للسلام نعم وهناك جمهور إسرائيلى متقف يدرك أن القوة ليست هى نهج السلام وأن ثمن السلام والتصالح ترضية الفلسطينين لا دك المنازل فوقهم المزيد منهم الغيظ والحقد نتيجتان طبيعيتان للقهر والظلم وما يسميه الإسرائيليون بالإرهاب هو نتيجة لما فعلوه هم وأسلافهم بسكان الأرض الأصليين . إذا كانت إسرائيل فطنة وتفهم التاريخ فلن يستمر وجود إسرائيل بالصورة الحالية طويلا وقد قالها لهم العالم أينشتين نفسه لا يمكن أن تبنى دولة بالدم وتدوم . بل قالها السيد المسيح عليه السلام الدولة التى تقوم بالسيف بالسيف تسقط . نعم هناك ثمن للسلام هناك تضحيات من الطرفين إذا ارادا فعلا السلام هناك ضريبة تدفع من أجل توفير بعض العدل وليس كل العدل ولكن إسرائيل وهى الآن الطرف الأقوى الذى بيده الحل والعقد هل هى مستعدة لدفع هذا الثمن . أشك فى ذلك .